# تشكيلٌ بالأبيض: النارُ في غزّة، النارُ فينا

□ هشام البستاني

(قصة)

يزورهُ إسرائيلُ في منامه. يرتفعُ جدارًا مُصْمَتًا أمام عينيْه نحو السماء.

❖❖❖

السماءُ زرقاء، تشقُّها خطوطٌ بيضاءُ متّصلةٌ بمؤخّرة الـ أف ـ ١٦. والعصافيرُ تبعثرها دفقاتُ هواءٍ حارّةٌ تنبعُ من شفراتِ الأباتشي.

لحظات، ويُسمع الصوتُ وتهتزّ الأرضُ. لم يكن صوتُ الله يكلّم موسى، ولا صوتَ ارتطام لوحة الوصايا العشر الحجريّة بوجه الصحراء. «لا تقتل،» كانت تقول. لكنّ الصاروخ، المندفعَ بعزم يهوه وسرعةِ حجر داود، أنزلَ عمارةً كاملة. بينَ الغبار والركام الأبيضيْن، كان رأسُ طفلةٍ يحاول الخروجَ، بينما استلقى أجسادُ ثلاثة عشر من إخوتها في الأعماق معانقين ما تبقّى من أمّهاتهم.

سحابةٌ بيضاءُ ثقيلةٌ تُمْسك الآن بوجه الأرض، تتسلّل من تحت الأبواب، من أطرافِ الشبابيكِ، ومن الثقوب التي خلّفها الرصاصُ في الجدران. الرائحةُ معدنيّةٌ، تَطْرقها أصواتُ سعالٍ واختناق. لا تَرى أحدًا؛ فضبابُ القنابلِ كثيف. بين الحين والآخر تسقطُ زخّةٌ من شُهُب الفسفور الأبيض، وتندلع النار. يبدأ الناسُ بالركض، بينما يتساقطُ لحمُهم المتفحّمُ على الأرض.

يضحكُ الجنرالاتُ على عرضِ الألعاب الناريّة.

❖❖❖

يمشي في حيّ الزيتون. يتابع بنظرهِ الهياكلَ العظميّةَ الراكضة. يَنْفض عن رأسه غمامةَ القهر، ويتابع المسيرَ. يسير بعيدًا، بعيدًا...

...بعيدًا إلى الجنوب الشرقيّ: «تملّكِ الآنَ شقّتَكَ الفاخرةَ في مدينة النصر، على الخليج مباشرةً.» فتح البابَ ودخل. الأصواتُ في شبه الجزيرة مختلفة، والسماء مشقوقةٌ بخطوطٍ بيضاء أيضًا لكنْ لم تتبعثرْ فيها العصافيرُ. العَلَمُ المرصّعُ بالنجوم يلمع لوهلةٍ تحت الجناح، وتَظْهر حروفٌ ناريّة: USAF.

يقفزُ من الشُّباك ليسقطَ بين غابات النخيل وأهوارِ الماء وضفافِ الرافديْن. يتسلّلُ الجنودُ مدجّجين بالأم ـ ١٦ والإصبعُ على الزّناد. يمرُّون به وكأنه نسمةٌ من هواء. صياحُ ديكٍ، ونقنقةُ دجاجاتٍ، ونهيقُ حمارٍ، ثمَّ تندلع النارُ من قاذفة اللهب لتتحوّل القريةُ شمسًا صغيرة.

❖❖❖

حين استيقظَ من كوابيسهِ كانت آثارُ الدماءِ والحروقِ وأغلفةُ الرصاص الفارغة تتناثر هنا وهناك في غرفته وعلى أغطية سريره. ومن ثقبٍ في السقف، كان يرى السماءَ الزرقاءَ المخطّطةَ بالأبيض والخاليةَ من العصافير. كان ثمة صاروخٌ لم ينفجرْ يخترق بطنَه.

إلى يمينه جلس إسرائيلُ يهدهده ويقول له: «نحن نتألّم لكلّ قتيلٍ مدنيّ. نحن لا نستهدف النساءَ والأطفال. نحن نقتل الإرهابيين فقط. سنفتح تحقيقًا حول ما حصل هنا...»

ابتسمَ. نظر ثانيةً إلى السماء الزرقاء، فشاهدها تتحوّل قليلاً إلى الأحمر. مرّ سربٌ من العصافير، وبالونات، وطيّارات ورقيّة. تدثّرَ جيّدًا بحزامٍ ناسفٍ، وضَغَطَ.

**عمّان**

**هشام البستاني**

طبيب أسنان، وكاتب وقاصّ من الأردن. صدرتْ له مؤخّرًا مجموعة: **عن الحبّ والموت** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨)